الفصل التاسع

- مآسى حزب الأغلبية التى شهدتها مصر، فى أسوأ ديموقراطيات العالم.
- أوهمونا بأنهم ينقلون إلى الشرق المتخلف ما يذهب إليه الغرب المتقدم.

obeikan.com

obeikan.com

الثقافة الوطنية بين العولمة وإمحاء الهوية

الثقافة هى أداة الكاتب المتجذر فى أعماق الأرض وعلى قدر اتساع المعمورة، على مرآتها، ينعكس تطور المنظور الأيديولوچى.. بكل مدارسها الفقهية.. العقدية.. اللغوية.. ذات المشتقات الرومانسية.. الطبيعية.. الانطباعية.. الواقعية السحرية .. الواقعية الاجتماعية؛ وما بعد البنيوية ألخ.

إن كثيرا منها مهموم بطرح الأسئلة، وفيها من اتخذ وضع الحلول غاية سامية ينشدها فى سعيه الإبداعى، ومن واقعنا نرى أن طبيعة الأسئلة التى تطرحها الثقافة لا تتيح لنا رصد واقعنا المعاش بوصفه ظاهرة مستقلة، وهذا شيء جيد،لأن أقل شيء يقال فيه أنه يعصمنا من التقوقع فى عزلة مقيتة، يحجب عنا الرؤية الصادقة.

على ضوء هذا النسق المعرفى.. يمكن رؤية ثقافة من هم مع الحياة ورؤية من يجدفون ضد تيار الإنسانية، ففى شريحة المثقفين هناك من تزداد رغبتهم فى طلب الديموقراطية، وبلفحات من أنفاس «التبعية الرأسمالية» تلتهب كتاباتهم بمشاعر الإعجاب بالنموذج الغربى فى السياسة، والثقافة، والفن، والأدب.

افتتن هؤلاء بما تستولده بطون هذه الثقافة من أصوات الرؤى الأيديولوچية «الناقدة» للرأسمالية ذاتها فى تحليلها السيكولوچى وفى تفسيرها من خلال الرغبة فى تجديد حيويتها وتنميتها، لا من خلال الاهتمام المستنير فى تغييرها فذلك شئ بحد ذاته لا يصنع جدلاً إيجابياً، ولا يثر فيهم نزعة المنح ويصقلهم على موهبة العطاء.

يتشكل من هؤلاء جناح من قيادات الحكم البائد، وهم معنيون باحتضان

هذا الوجه الثقافى الوافد، ونشره بين شباب مصر ومن خلال وسائل إعلام الدولة المرئية والورقية والإليكترونية، دون أن يعرف الأعضاء أن الحزب يعنى – كما ورد فى معجم لسان العرب – كل قوم تشاطرت أعمالهم وقلوبهم ويسعى القائمون عليه ومن خلاله لتطوير المجتمع والدفع به فى الاتجاه الذى يرون أنه يحقق الخير ويعمل لصالح الناس.

ومن مهام الحزب الرئيسية حسب المفهوم الغربى أن يعمل على توسيع دائرة الحرية الفردية، وتشمل الحقوق الشخصية، من حق الملكية وحرية الانتقال وممارسة العقيدة الدينية، وحرية التعبير.

ولا مانع لدى من عرّفونا بأنفسهم كديموقراطيين أن يخلعوا على ديموقراطيتهم سمتان من تقاطيع الوجه الغربى، ثم يصبغونها بألوان من محليتهم ذى النزعة الليبرالية المسرفة فى الأنانية وحب الذات.

ثم يزعمون من الأفضل عدم الالتفات إلى نتائج التجربة الحزبية والديموقراطية من منظور شعبى، إذ لا يزال الوقت مبكراً، وليس من المفيد تناول الأمور كمسألة حسابية قوامها الجمع والطرح فقياس الأمور بهذه الطريقة (أن تغفل المزايا هنا أو المساوئ هناك).

كانوا يأملون أن تظل الأمور تجرى بغير حساب.

كيف؟.. إذا كانت الديموقراطية فى نفس الوقت تؤسس على أن للأغلبية حق الحكم. (وأن للأقلية حق المعارضة)، ولا يخفى عن ذى فطنة أن هناك غالبية تحكم وأقلية تنتهز الفرصة لتقفز إلى مقاعد الحكم.. كيف إذن تختفى بين هؤلاء عمليات الجمع والطرح؟

والواقع أن هناك دائماً من يربحون، وأن هناك فى الحياة المصرية من كانت تلازمهم الخسارة أبداً، ولا يحب من يمتصون عرق الشعب باسم الديموقراطية

أن يراجعوا تاريخ الديموقراطية الغربية التى تقوم على هيكل اجتماعى.. طبقى يستند على تاريخ التسيد على حركة المجتمع، ثقافياً، وسياسياً، وهناك لديهم (الطبقة العاملة التى سمح لها تدريجياً بالمشاركة الاقتصادية والسياسية لتلك الطبقة استناداً إلى تنظيماتها النقابية والحزبية وتأثيرها الاجتماعى المتزايد).

من هنا، ولد مفهوم «المشاركة» أى مشاركة «الشعب» عموماً والعمال «خصوصاً» فى سلطة البرجوازية، وهى مغريات جعلت «الشرق» من عوالم الغرب منذ أن توالت عليه الحملات الصليبية.

وبما أن هؤلاء كانوا يشكلون «حزب الأغلبية» فقد باتوا يرون أن من حقهم توزيع ثروات البلاد على عائلاتهم، وأن على الدولة أن تخفر مصالحهم وترعاها، وفى لغة مسفة تشيد الصحافة القومية بأعمالهم.. أوليسوا هم الذين يزرعون على أرض مصر العمل والأمل؟!

أوليسوا من خلال احتكار عمليات الإصلاح الاقتصادى والسياسى والادعاء بالتنمية يذهبون إلى أنهم ينقلون إلى الشرق المتخلف ما يذهب إليه الغرب المتقدم؟!

وفى أسواق الديموقراطية يستغلون مناصبهم الحكومية كما يستغل الوزير السائق الذى تدفع له الحكومة راتبه والسيارة التى تنطلق ببنزين الحكومة فى حملاته الانتخابية:

«ولأن الوضوح ليس كافياً فإن البعض يزعم أن أحد الوزراء قد سحب «ذهبية» مملوكة لوزارته لترسو على شاطئ النيل فى دائرته الانتخابية واتخذ منها مقراً انتخابياً له، فهل هذا مسموح به؟ ونتذكر أن مصطفى النحاس باشا عندما كان رئيساً للوزراء استخدم «ذهبية» مملوكة لوزارة الرى فى رحلة شخصية إلى الصعيد، فثارت الدنيا، قامت ولم تقعد، وأورد مكرم عبيد باشا فى الكتاب الذى أصدره عن «فساد» الحكومة وأسماه الكتاب الأسود.

ترى متى سيصدر كتاب أسود جديد، وهل سيكون كتاباً أو سيحتاج الأمر إلى مجلدات بغير حصر؟(١)

وفى زمن العولمة «الديموقراطى» اهتم مثقفو أوسلو وكوبنهاجن المصريين بالتصدى لمنتقدى الحكومة، وهم معنيون بتوسيع شبكة الاتصالات العربية للتأثير فى الرأى العام حتى يحيد عن ثوابته وحقوقه السليبة، وبأمل الاتفاق معهم على تسويات ترضى الإدارة الأمريكية، وتتضمن الإقرار بحق إسرائيل فى الوجود، وأن يقروا بالمحافظة على أمنها وسلامها، ولا مانع أن يتحولوا من مفكرين ومثقفين إلى خفراء خدمة لدولة إسرائيل، ولكى تنهض بمسيرة التقدم.

لقد نسوا أن لدينا تراثاً يمكن أن يستفيد منه شعبنا، انطلاقاً من المقومات الرئيسية المستخلصة من التاريخ، لأمة مرت بمرحلة من الإزدهار الحضارى طوال النصف الأول للعصور الوسطى.

وإذا كان الغرب أغمط الحضارة الإسلامية حقها فلا يجب أن ننسى ما كان للعرب والفلاسفة المسلمين من فضل على النهضة الأوروبية فى القرن الخامس عشر الميلادى.. لدينا ابن رشد.. ابن خلدون.. ابن المقفع. ابن سينا.. ابن النفيس.. الخوارزمى، وغيرهم ممن كانوا معلمين لأوروبا، وبفضل أعمالهم التى نقلت إلى لغة الغرب لما كان العالم الذى يزعم أنه ديموقراطى حر يخرج من غابات الظلام.

وحديثاً.

بعد مراحل من التجريب والاختمار، توصلوا إلى العديد من الصياغات والأفكار، وأوجدوا لأنفسهم – تعبيراً عن المصالح والجماعات – الأطر التى تتوحد فيها قواها فخرجت فكرة الأحزاب إلى حيز الوجود، وصار لكل جماعة

(١) د. رفعت السعيد: ملاحظات ليست عابرة، مقال، جريدة الأهرام ١٣ - ١١ - ٢٠١٠ ص١٠.

حزباً يدافع عن مصالحها، وينمى لدى أعضائه عقيدته السياسية، وفيها شروح مفصلة عن الديموقراطية وكيف تدير هذه اللعبة ساقية العمل «النضالى» الذى لو بحثنا فى عقيدته لوجدناها تختص بزرع الشكوك والحط من قدر كل ما تقوله الأحزاب الآخرى.

بات الجميع يحرصون على احتواء صناديق الاقتراع، فمن ثقبها يندلع زئير الشعب معلنا عن إبداء الرأى فى نواب الشعب الجدد، وعقب عملية فرز الأصوات يُنحى أصحاب الياقات الملوثة بالعرق والأيادى الملوثة بشحم وزيوت الماكينات، أمام من يستطيعون فرض التأثير على أصوات البسطاء، إذ أن بعضها مهان، وبعضها مدفوع الثمن، وفى هؤلاء من يبحث لنفسه ولعياله عن أعلى سعر فى أسواق الديموقراطية.

نواب عصر العولمة – أكاديميون. تكنوقراطيون.. أصحاب استثمارات ضخمة فى مجال السياحة والفنادق ومحاصيل الأراضى الزراعية واستيراد المواد الغذائية.. هؤلاء المرشحون – كنواب – لشراء كل شىء فى البلد بما فى ذلك أصوات الشعب، ينتظرهم تقدير من نوع آخر ومكافآت مجزية، يتسلمونها فى مظاريف رسمية عقب الصفقات الكبرى القريبة الشبه بشراء أصوات الشعب، وهى كرشوة تدفع لإسكات أصواتهم حتى لا يضغطوا على الحكومة ووزرائها بالكشف عن المستور من جرائم الانحرافات وسرقة أموال الشعب العامة.

وعلى رائحة الفساد والرشوة تحلق بنا أجنحة «الديموقراطية» فوق قبة مجلس العموم البريطانى، ونراه حيث أوجد إلى جواره (ركناً يذهب إليه النواب للحصول على ثمن أصواتهم):

«وفى عام ١٧١٤ تم إيجاد منصب جديد هو السكرتير السياسى للوزير، وكان عقد الصفقات مع أعضاء مجلس العموم أحد مهام هذا السكرتير بهدف

مقاومة الضغط الذى يمارسه هؤلاء الأعضاء على الحكومة.(٢)

كانوا صادقين مع أنفسهم عندما أداروا ظهورهم لمطالب الجماهير، ولكن اهتمامهم كان بالغاً عند الأخذ بمطالب النزعة الفردية حتى تظل القيم الفردية العلامة المميزة للغرب بين حضارات العالم، وفى زهو الادعاء بأنها ساعدته للأخذ بزمام القيادة فى تحديث العالم، نراه ينطوى فى غطرسة واستعلاء على مفاهيمه وأنماطه، ويستبعد عن كيانه كل من يخالفونه الرأى، ويلقى بهم خارج المنظومة الغربية.

لم يفكر أحد من ساستنا ومفكرينا فى «استبعاد» الذى (يستبعدنا ويستعبدنا)، لا نقول ذلك بدافع القطيعة والعداء، ولكن بإيجابية الأخذ بأفضل منجزاته التقنية، ودون أن ننسى أن لنا فى حافظة التاريخ حضارة، نستطيع إذا أخذنا فصولاً منها – التصدى لمن يسعون أن تكون حياتنا بلا سقف، وبلادنا بلا حدود آمنة و«دون حماية» لتمكين منفذى مناهج العولمة من رقابنا، تلك التى توقعنا فى دائرة من الأعمال والمسميات، شكلها صحيح، وجوهرها خبيث.

من خبائث العولمة وأرذالها، التخلص من روح الوطنية.. إغراء أبناء شعوب العالم الثالث للهجرة وتنمية التطلعات الفردية بحيث يصبح المهاجرون الجدد ينظرون لأوطانهم على اعتبار أنها الوعاء الملوث وأنها «الماضى» المعتم، وعلى كل من يرغب فى الحصول على ثمار النجاح أن يأخذ بمبادئ القيم التى تزعم أن الوطن حيث يكون المرء فى نعمة، وإذا أراد الأخذ بعدم حرفية مقولات العولمة فلدى العرب مواقف أبى الطيب المتنبى فى الحياة، والتى يقول فيها: (وحيث ينبت العز موطنى!) فتبادل المنافع باتت لدى هؤلاء مقدمة على مشاعر الولاء والانتماء للوطن:

«ولو أمعن المرء النظر فى كل هذه التطورات مع بعضها لأدرك بأن التغييرات

(٢) د. هالة مصطفى (الأحزاب) موسوعة الشباب السياسية، مركز الدراسات السياسية بالأهرام - القاهرة ٢٠٠٨ ص٢٣.

فى تبادل الأمم بـ« السلع والخدمات والنقد ورؤوس الأموال والإنجازات الثقافية والناس والسفر. أصبحت هائلة للغاية بحيث أدى التعجيل فى السيرورات والزيادة فى الحجم إلى نوعية جديدة فى الواقع. ولقد أطلقنا على هذه الظواهر فى التسريع وفى تغيير الحجم اسمه (العولمة) .[٣]

هل هناك من مناجز؟.. هل هناك من مبارز؟.. هل هناك من لديه شعور وطنى لمقاومة هذا الواقع؟.

المقاومة التى على الجانب المضاد تعرى حقيقة موقف مدعى الديموقراطية وتسقط عن وجوههم الأقنعة الزائفة، وفى محاولة لإيقاف معاول التنديد بأوضاع مصر الداخلية، رفع مبارك الغطاء موضحاً لمن كان يدعوه: الصديق والحليف الاستراتيجى الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش لعله يتفهم ما ستسفر عنه رغبة الولايات المتحدة الأمريكية فى حرية وإشاعة الديموقراطية فى مصر من مخاطر تعصف بمصالحها ليس فى مصر فحسب وإنما فى منطقةالشرق الأوسط كلها، خاصة إذا أعطيت الفرصة لأعضاء الجماعة المحظورة « الإخوان المسلمين » فإن أحداً لن يستطيع خلعهم عن مقاعد الحكم إذا ما مكنتهم الديموقراطية منه.

وعلى قدر ما كانت مشورة سيادته معبرة عن الدوافع اللاشعورية للرهاب والحوذ التسلطى فإنها أفصحت فى ذات الوقت عن جذور ومنطلقات السلطة التى تحكم بمبادئ الزيف والمخاتلة فى لغة منفتحة على المجالين السياسى والأيديولوچى لزعماء وسادة العولمة.

ومن وجوه الزيف الذى كان شائعاً أن الصحافة القومية لا تألوا جهداً فى الحديث عن « حب الوطن » وأهمية « الانتماء »، وهى تدير دفتها فى اتجاه التيار المعاكس، ويتناسى كتابها أن الشعب المصرى صاحب التاريخ والحضارة لا يحب

(٣) نورمان فان شِرينبرغ (فرص العولمة).. الأقوياء سيزدادون قوة.. مصدر سابق ص ١٧و١٨.

أن يظل مطية:

« ويجب ألا ينسى الجميع أنه عندما كان أسلاف الشعوب الكبرى فى أوروبا من الغاليين والأنجلوسكسون، واللاتين، والرومان، والصقالبة لا يزالون يهيمون على وجوههم فى الغابات والكهوف، ويرتدون جلود الحيوانات، كان أمراء مصر يكتسون بأزهى الملبوسات، ويجلسون على عرش مصنوعة من الذهب والعاج ويزينون بحلى ومصوغات تتحدى دقة صنعها وبراعة صياغتها أمهر جواهرجى بشارع دى لابى بباريس ويسكنون قصوراً أفخم من قصر فرساى، ويقيمون شعائرهم الدينية، فى معابد أضخم من أعظم كاتدرائياتنا.(٤)

ليس هروباً من الواقع عندما نقول: لعل فى الاستعادة استفادة، حيث توضع مصر فى كفة الميزان فلا تقاس حضارتها البتة بما كانت عليه أوضاع العبرانيين إذ كانوا عرباً رعاة، ولم يكن لديهم حضارة يشهد لها التاريخ، بل كانوا يدينون بالجزء الأعظم من حياتهم للكنعانيين الذين سبقوهم للعيش على أرض فلسطين:

« فلقد أخذ العبرانيون عنهم لغتهم وحروفهم الأبجدية، ولا نزاع فى أن الإسرائيليين عندما استقربهم المقام فى موطنهم الجديد نبذوا لهجتهم السامية القديمة، وتكلموا بلهجة الذين سكنوا معهم، وبدهى أن لغتهم لم تكن تكتب لأنهم لم يكونوا بعد يعرفون القراءة والكتابة، وذلك لم يكن لهم فى بادئ الأمر إنتاج أدبى أو تاريخى مكتوب ».(٥)

وما لا يسيغه العقل أن يكون ثمة مجتمع كل أبنائه مصابين بالعشاء البصرى، ولا يرى أحد منهم هذا التمايز، وما كانت عليه مصر كمركز للإشعاع

(٤) جان بوترى. سياسى وأديب فرنسى.

(٥) د. سليم حسن (مصر القديمة) نهاية الأسرة الواحدة والعشرين وحكم دولة اللوبيين لمصر، الجزء الرابع، مكتبة الأسرة ٢٠٠١ ص ٥٣.

فى تاريخ الشرق الذى كان موطن الفكر والإبداع بعد انتهاء العصور المطيرة وانتشار الجفاف، ثم حدوث الاستقرار ومعه العمران على ضفاف الأنهار.. النيل.. دجلة.. الفرات:

كما لا حظ أحد علماء اللغة البارزين «جوشوا فيشمان» فإن لغة ما تميل إلى أن تصير لغة الاتصال السائدة إذا لم يتم تجديد هويتها فى شكل عرقى، أو دينى، أو أيديولوچى معين.. فاللغة الإنجليزية العتيقة وجدت أشياء من هذا القبيل، وفى الفترات الأخيرة أصبحت الإنجليزية أكثر تخلياً عن العرقية أو التقليل من عرقيتها كما حدث تماماً فى السامية والآرامية واليونانية واللاتينية.(٦)

صارت لغة اليهود الذين جاءوا بعد العبرانيين بعدة قرون، تتسم بالفظاظة والعنصرية، وأصبح لهم رصيد من التقنية الحوارية، الهيولية، عندما يجلسون إلى طاولات العرب للتحاور، وقد يكون لديهم الكثير مما يريح قوله، ولكنه يخلو من الصدق والالتزام.

ثم يدعون أن المسلمين والعرب ليسوا ديموقراطيين، ونحن لدينا القرآن الكريم وفيه أبلغ آيات الله فى الحكمة، والعدل، والرحمة، والديموقراطية، وفيه حوارات بين أنبياء وطيور، وبين ملوك على عقيدة التوحيد وفراعين كفرة، وفيه ذلك الحوار الذى بلغ غايته فى رفعة الخالق سبحانه عندما أتاح الفرصة لمخلوق لكى يناقشه فيما لا يجب الخوض فيه.

مع استعادة تلك الدروس يطل علينا بوجهه الرئيس السادات فقبيل نهاية السبعينات، وبعد أن فرغ من تصفية أعضاء الحرس القديم فى التجربة الناصرية ذات الميول الشمولية، أطلق على حركته: ثورة ١٥ مايو، ثم شرع فى إقامة المنابر

(٦) صموئيل هنتغتون (صدام الحضارات) وإعادة بناء النظام الحضارى، نقله إلى العربية د. مالك عبيد أبو شهيوة و د. محمود محمد خلف. الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، بنى غازى، الطبعة الأولى ١٩٩٩ ص١٣٦.

الوطنية تمهيداً لإقامة دولة المؤسسات والقانون، والحياة الحزبية الديموقراطية.

تمخضت التجربة الساداتية عن قيام عدة أحزاب قزمية، لا تستطيع أن تقف على أقدامها أمام غالبية أعضاء مجلس الشعب الذين كانوا يزينون صدر الحزب الوطنى الحاكم بالأوسمة وآيات الشكر والعرفان.

يطنطون صباح مساء بالديموقراطية، على حين يضيِّقون من مساحتها إلا على أنفسهم، فليس مسموحاً للمعارضة بأن تنجح فى انتخابات مجلس الشعب، ولا فى مجلس الشورى:

« وكان ظننا أن التعديلات الدستورية التى تمت فى سنة ٢٠٠٧ استهدفت تقفيل مستويات معينة من مراتب السلطة العليا لصالح استمرار القيادة الحالية للنظام، لكنا اكتشفنا بعد ذلك أن دائرة التقفيل أوسع بكثير مما ظننا بحيث أدت من الناحية العملية إلى « تأميم » السياسية والإعلام والجمعيات والقضاء وإلحاقها بالسلطة بصورة أو بأخرى ».(٧)

لقد كانت الرذائل وأساليب الخداع مدروسة بالفعل وبعناية شيطانية، قد تضطرنا لا سترجاع ما ذكرناه سلفا على لسان كنداليزا رايس فى شأن الشعوب التى لا تستطيع بمفردها أن تحصل على الديموقراطية والعدالة فى ظل السلطة المستبدة، الأمر الذى دفع أحد الراغبين فى الترشيح لمنصب رئيس الجمهورية لأن يصرخ قائلا:

" يتعين على المجتمع الدولى دعم كفاحنا من أجل الحرية، وإلزام مصر بتعهداتها الدولية بخصوص (احترام) حقوق الإنسان، كما ينبغى ألا تداس حقوق الشعب المصرى من أجل وعد بعيد المنال بتحقيق الاستقرار.

(٧) فهمى هويدى (بكائية على لعالم الجديد) مقال، جريدة الشروق الثلاثاء ٢٨ ديسمبر ٢٠١٠ ص١١.

ويضيف:

إن دوام الاستقرار فى مصر، كما فى أى مكان لن يأتى إلا من خلال ديموقراطية حقيقية تستجيب بعدل لحاجات وطموحات كل أفراد شعبها».(٨)

فإذا غاب العدل وصوبت إلى صدور الطموحات البنادق فهل يمكن لإنسان أن يبنى الديموقراطية فى ظل سياسات النهب والخصخصة؟

تخوض شريحة من المثقفين وطليعة من الطبقة العاملة معارك الكفاح والشرف، وقد إندفع المد الثورى بهم إلى ساحة ما كان يسمى: مثلث الرعب:

* سلالم نقابة الصحافيين.
* نقابة المحامين.
* نادى القضاة.

ضمت مسيرة النضال: عمال الإسكان والتعمير.. عمال تحسين الأراضى.. عمال شركة كابرى للأغذية.. عمال مصر للصناعات الغذائية.. عمال النوبارية للميكنة الزراعية، وغيرهم من عشرات المؤسسات الإنتاجية.

انتاب الذعر أركان النظام.. خافوا من أن يأخذ هذا الجدل الاحتجاجى شكلاً ثورياً حتى ينتقل من رصيف البرلمان إلى داخل البرلمان، وما كان النظام ليتحمل هذا فقام على الفور بحملة قمع واسعة النطاق لتحرير مثلث الاستبداد من وقفة العمال الاحتجاجية، أسفرت عن إصابة العشرات منهم.

على الرغم من ذلك توالت الموجات الاحتجاجية، وطالب العمال إيقاف نزيف موارد البلاد، والايقاف الفورى لبرنامج خصخصة المؤسسات المملوكة للدولة، وإعادة النظر فى الإتفاقيات السابقة، وتعديل موادها لمصلحة الشعب، والمطالبة بحق العمال فى تحرير التنظيم النقابى، وحقهم فى تشكيل نقاباتهم

(٨) د.محمد البرادعى، مقال نشر بصحيفة «واشنطن بوست» الأمريكية ٢٧ ديسمبر ٢٠١٠.

المستقلة عن سيطرة الدولة.

وحول نضال حملة الأقلام. دعونا نتكلم صراحة عن المثقف الذى صار تابعاً ومتهاوناً فى استقلال شخصيته تحت مطارق ضرورة العيش.. إن الذين يتخذون – اليوم – من الكتابة «السبوبة» التى تعينهم على العيش. يمكنهم التغاضى بسهولة عن الشرف والتنازل عن كرامتهم الشخصية.

ولسوف يظل التاريخ يذكر للرعيل الأول من المثقفين تلك المواقف الوطنية المشرفة، وللحق يقال فى هؤلاء أن ظروف معيشتهم كانت مريحة فساعدهم ذلك على استقلال مواقفهم دونما خضوع لضروريات «السبوبة» هنا، قد لا تنصف المقارنة أحداً من هؤلاء إذا أخذنا الوضع المادى لأحد الطرفين واعتبرت الأفضلية بينهما قياساً على الثروة التى لولاها لما برز الرعيل الأول من المثقفين فى صورة من الزهو والنقاء.

لذلك، نحن لا نحبذ مقارنة كتاب الماضى بكتاب الألفية الثالثة:

«لأن عالم المثقفين المصريين الحقيقى هو فصائل منفصلة بلا اتصال، وشراذم متفرقة بلا لقاء، جزر من عالم الآنا المتورم: نرجسية ضيقة الأفق، لا ينظر خارجه ولا حتى ليرى موطء أقدامه.. هل نتوقع منه بعد هذا أن يكون ذا رؤية شاملة للحظته الراهنة أو لمستقبله الراهن؟!»(٩)

من المؤكد أن شريحة المثقفين لا يطغى عليها لون واحد، وليسوا كلهم نرجسيين أو غارقين تحت سطح ذوات متورمة، وليس مثقفى مصر كلهم أوسلو وكبنهاجن.

هناك غير هؤلاء من الشرفاء ومن تطالهم يد البطش وأودعوا غياهب السجون لأنهم ألقوا على رأس النظام بحجر، أو باتهام من سرطنوا الأراضى الزراعية

(٩) صلاح عيسى (صنع فى حيزران) مقال – مجلة الثقافة البغدادية. ديسمبر ١٩٧٣.

وأضعفوا غلتها بفعل المواد الكيميائية المستوردة من إسرائيل أو لأنهم تضامنوا مع الشعب الفلسطينى فى مأساته اليومية.

فحينما اتجه الكاتب مجدى أحمد حسين إلى غزة أثناء العدوان الغاشم عليها فى ديسمبر ٢٠٠٨ ألقت السلطات المصرية القبض عليه منذ عشرين شهراً، وإسرائيل مستمرة فى إطلاق القنابل العنقودية المحرمة على غزة استكمالاً لما أطلقت عليه: «عملية الرصاص المسبوك».

إن تاريخ اضطهاد الكتاب المصريين حافل بالنضال والمطاردة، فقد تعاقبت عليهم صنوف من عذاب منذ الحقبة الناصرية لا.. لانهم شهروا فى وجه النظام فوهات البنادق، وإنما كانت الأقلام فى أياديهم مثل مبضع الجراح الذى لا يملك أمام الأورام السرطانية إلا القيام بعملية بترها، فكانت المطاردة والزج بهم فى السجون:

«وعانى عدد كبير من مثقفى هذا الجيل من مذابح المثقفين الجديدة التى بدأت مع أزمة مارس عام ١٩٥٤، وطرد عدد من أعلام الفكر اليسارى من الجامعة: محمد مندور ولويس عوض إلى محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس وغيرهم، واستمرت تلك المذابح مع سجن عدد كبير منهم أبرزهم: يوسف إدريس، ونعمان عاشور، وعبد الرحمن الشرقاوى، ولطفى الخولى وغيرهم».(١٠)

إن كوكبة من مثقفى كتاب مصر، كانوا فى واقعيتهم يختلفون فى تناول ما يحبل به الواقع المصرى من عناد، وصبر، وانكسار، كل من الزاوية التى يراها تفيد المجتمع، ومنهم من التزم بواقعيته بدءاً من الوصف التفصيلى للمكان وللشخوص، ومنهم من حاول سبر أغوار الحقيقة من خلال جدلية تنشأ بين

(١٠) صبرى حافظ (كيف وصلنا إلى المثقف التابع؟) مقال. جريدة الشروق. الجمعة ٢١ نوفمبر ٢٠١٠ ص ١٦.

الذات والمجتمع.. بين الأنا والآخر. فى منولوج داخلى يفضى إلى ذوات تتسع تلقائياً لظاهرة الشعب المغيب، أو المهمش، أو الضائع بين أفلاك اجتماعية تسييره إلى حيث تشاء له من أقدار ومصائر.

وكان أبرز النتائج مأساوية أن المثقفين اليساريين الذين أطلق عليهم صفة المنتمين بعد رحلة داخل السجون والمطاردة استطاعت مؤسسات الدولة الثقافية أن تضعهم فى بطنها وتلتهم إفرازتهم منذ ستينات القرن الماضى حتى تحولوا إلى مخصبات عضوية فى أرض أصيبت بالجدب فى عهد السادات ومبارك:

« ولكن عقب اغتيال السادات بدأت هذه الصورة فى التغيير، وبدأت معها استراتيجيات جهنمية جديدة لا فى الاجهاز على استقلال المثقف فحسب، وإنما فى القضاء على دوره الوطنى كلية، وتحويله إلى كلب للحراسة، بدلاً من دوره السابق كحارس للقيم الثقافية والوطنية والأخلاقية، حتى وصلنا إلى المثقف التابع المستنيم لدعة الحياة فى الحظيرة ومكاسبها الوفيرة، والتماهى المرعب بين المثقف والمؤسسة التى تزداد غربتها باستمرار عن بنية المشاعر الشعبية أو الأمانى الوطنية ».(١١)

لن يعدم الباحث إمكانية رصد القوى الناشطة فى المجتمع: شريحة المثقفين، وهم لا ينتمون لطبقة بعينها، ثم القوى اليسارية، لكن أبرز الموجودين على الساحة، هم جماعة الإخوان المسلمون، ولنا معهم وقفة.

●●●●●●

١١ صرى حافظ: مصدر سابق.